تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

مزية فى الشعر :

أود فى هذه الرسالة أن أقف منك موقف السائل ، كما أحب أن تقف منى موقف المجيب . وأتمنى أن تكون معى فى هذين الموقفين صريحا وجريئا شأنك فى كل المواقف التى عرفتك فيها من قبل

أنا لا أنكر عليك الجرأة والصراحة ، ولكنى أخاف أن تحول صداقتك بينك وبين ما أنا عارضه عليك . وأخشى مرة أخرى أن تتغلب عليك النزعة الإقليمية التى تتغلب على الكثير من كتاب مصر — وحاشاك من هذا الظن الخاطئ — عندما يسألون عن كتاب أو كاتب وقيمته فى ميزان النقد الأدبى فيلفون ويراوغون ، ويجيبون على قدر ما تقتضيه حقوق الزمالة وصلة الجوار ، خصوصا إذا كان الكاتب مصريا والسائل من بلاد أخرى ، متخذين من الألفة عينا تغض النظر عن العيوب ما دام صاحب الأثر الفنى الكسيح صديقا يجب ألا ينال منه معول النقد النزيه أو من أثره المتصدع الأركان !

والسؤال الذى أعرضه عليك يتعلق بالشعر ، هذا الفن الجميل الذى أصبح الآن ملهاة بيد أناس لا يحسنون حتى أداءه ! أما هذا الشعر فهو يتعلق بقصيدة وسمها ناظمها باسم « إلى فتاة » ، وأما صاحبها فهو صديقك — كما قيل لى — بشر فارس الحائز على شهادة الدكتوراه من السربون ، وقد نشرت هذه القصيدة أو هذا الهذر المنظوم فى العدد الثامن عشر من المجلد الخامس من مجلة « الكاتب المصرى » التى كان يرأس تحريرها معالى الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف المصرية ، ولم يتسن لى الاطلاع عليها فى حينها لانشغالى بقراءات أخرى متصدعة

لقد عرض على هذه القصيدة قبل أيام صديق من شباب الأدباء ، وطلب إلى أن أبدى رأيى فيها . ولقد قرأتها عدة مرات وفى كل مرة كنت أخرج منها بعدم الفهم أو بلا شىء ! وخفت أن أظلم الدكتور بشر فارس ، أو أتهم نفسى بالضآلة والأنانية ، فجئت أعرض قصيدته عليك لتقف حكما بين فهمى وذوقى وبين شعر الدكتور الشاعر ، ناظم هذه المعجزة التى حيرت عقول البشر من شعراء ونقاد . . إن قراء « الرسالة » فى الشرق والغرب ليتطلعون إلى حكمك النزيه الذى أعتقد أن روابط الصداقة لن تحول بينك وبين إصداره ، أو بينك وبين صراحتك المعهودة وجرأتك النادرة المثال ! وهذه هى القصيدة :

فيض أهواء العيون ... تنشد الرمى اللطيف
خاف جسات الجفون ... تحسر الوهم الرهيف
فر هفاف الجنون ... نحو أبراج الطريف
يجتلى ما قد يكون ... بعد منظور كثيف
عاد من قطب الظنون ... من سنا أوج عفيف
مثل زهو فى الغصون ... لم يروضه الخريف

* * *

بصريني يا «وضوح» ... ثروة القطب الخطير
أنا فى وهج الفتوح ... يقظ لكن حسير
خف بى كشف طموح ... وكبا فهم كسير
فسرت فوحات روح ... فى غيابات الضمير
لمحات قد تبوح ... بخفيات الأثير
ويه جودى بالشروح ... يسرى أنس الغرير !

وختاما لك منى أصدق المودة وأخلص التحية . . . واسلم للأدب وللقراء ولأخيك :

بغداد — عبد الغفور رشيد الناصرى

مشكلة النزعة الإقليمية التى ورد ذكرها فى رسالة الأستاذ الناصرى ، تفرض على أن أعود به وبالقراء إلى الأمس القريب ؛ إلى ذلك اليوم الذى ظهر فيه العدد (٩١٥) من الرسالة حاملا إلى هذه الكلمات من قارئ أديب :

« قبل أن تطلع علينا بهذا المذهب النقدي الجليل — مذهب الأداء النفسي — كنت أتوق وأتمنى لو أن في أدبنا العربي مثل هذا المنهج في دراسة الأدب ونقد الشعر. وعندما قرأت مقالك الأول، وأخذت في قراءة الثاني أمسكت عن القراءة وعزمت على أمر.. عزمت على أن أنتظرك حتى تتم هـذه المقالات أو هذا المنهج في فصولك النفيسة، فتضع بذلك حجر الزاوية في بناء النقد العربي الحديث، لأني أردتها قراءة مترابطة آخذا بعضها بعرى بعض.

إلى هنا ياسيدي وأنا أوافقك على كل ما ترى، وأذهب معك إلى أن « الأداء النفسي » هو النظار الأفضل الذي يجب أن ننظر منه إلى نتاج القرائح وفيض العقول.. ولكن يظهر — واسمح لي بهذه — أني أخالفك فيمن طبق علية هذا المذهب ذلك التطبيق الواسع، أو فيمن يجوز أن تجده في شعره بصورة واضحة، ومن يقرأ تعقيباتك وردودك، ودمعة الذكرى على الشاعر الراحل يعرف أنك تقصر هـذا المذهب على نابغة المنصورة، وإن اضطررت — لسبب ما — ألا تغفل بعض من يسكنون الشام. واستطيع أن أخرج من هذا بأن العصبية الإقليمية ما زال لها مكان مرموق وصوت مسموع، حتى عند أئمة النقد وحاملي لوائه » !

بالأمس اتهمني هـذا القارئ الفاضل — وهو من الأدباء السوريين — بالعصبية الإقليمية، يوم أن تحدثت في بحث متصل الفصول عن شعر علي محمود طه.. واليوم أسمع هذه الكلمة نفسها من صديقنا الأستاذ الناصري — وهو من الشعراء العراقيين حين يشفق علي من أثرها وأنا في معرض الحكم على شعر الدكتور بشر فارس! إن ردي على هذا الإشفاق هو ردي على ذلك الاتهام حين قلت معقبا عليه منذ شهور:

« الشيء الوحيد الذي لم أكن أنتظره أو أفكر فيه، هو أن يتهمني قارئ فاضل بالعصبية الإقليمية، أنا الذي حاربت هذه العصبية بكل ما أملك من جهد على صفحات « الرسالة »، كلما أطلت برأسها من قلم كاتب أو من لسان أديب.. ومع ذلك فقد فوجئت بالقارئ الذي اتهمني على غير ترقب وانتظار!

لقد طبقت مذهب « الأداء النفسي » على شعر علي محمود طه، وإن تلك النماذج الفنية التي استشهدت بها من شعره، هي الحكم الفاصل بيني وبين كل معترض على أمانة النقد وسلامة التطبيق. ولن أضيق أبدا بأي قارئ يجادلني فيما كتبت، ما دام نقده قائما على أسس واعية من الفهم والذوق والمراجعة!

إن إيليا أبا ماضي الذي أضعه في الطبقة الأولى من الشعراء ليس شاعرا مصريا، ولعل القراء يذكرون أن أول تطبيق لمذهب الأداء النفسي على صفحات « الرسالة » كان منصبا على شعر هذا الشاعر، حتى لقد دفعته الدهشة من أن يحتفل ناقد « مصري » بشعره، إلى أن يبعث إلينا بتحيته الصادقة وشكره الخالص، على لسان صديقنا وصديقه الأستاذ محمد علي الحوماني.. ماذا أقول بعد هذه اللفتة التي أذكرها لأول مرة، حين دعت إليها المناسبة واقتضاها المقام »؟!

هذه الكلمات التي تصور موقفنا من العصبية الإقليمية هي التي فرضت علينا أن نعود بالأستاذ الناصري وبالقراء إلى الماضي القريب؛ الماضي الذي لا يختلف عن الحاضر في شيء من أهدافه ومراميه.. وإذن فليس هناك ما يدعو الأستاذ الصديق إلى أن يشفق علينا من هذه العصبية البغيضة التي ما زلنا نحاربها بالقلم واللسان، في كل مناسبة وكل زمان!

وإذا كان الأستاذ الناصري يريد أن يعرف رأينا في هذه القصيدة الرمزية، فلا بأس من مطالعته بهذا الرأي الذي يستطيع على ضوئه أن يزن شعر الدكتور بشر فارس، وهو رأي نقتطفه من كتابنا الثاني الذي يتطلع بعد الأول إلى الدور في المد القريب.. إنه دراسة فنية عامة للرمزية النفسية والرمزية اللفظية أو الرمزية المطبوعة والرمزية المصنوعة، أو الرمزية المستحسنة والرمزية المستهجنة، ومن خلال تلك السطور التي وضعنا تحتها الخطوط، يتضح رأينا في رمزية « صديقنا » الدكتور بشر وكل رمزية أخرى تماثلها في الصورة وتشاركها في الإطار:

« ما دمنا نقسم الأداء في الشعر إلى قسمين: أداء لفظي وأداء نفسي، ونقسم الموسيقى في الشعر إلى نوعين: موسيقى اللفظ وموسيقى النفس، فإننا نفرق أيضا بين نوعين من الرمزية: هما الرمزية اللفظية والرمزية النفسية.. وما دمنا نذكر القسم

الأول من الأداء ، ولا نقيم كبير وزن للنوع الأول من الموسيقى فإننا نستهجن أيضا ذلك اللون الأول من الرمزية ! إن الفارق بين الرمزية اللفظية والرمزية النفسية هو الفارق بين الرمزية المصنوعة والرمزية المطبوعة . إننا ننشد الوضوح في الفن لأنه ركن من أركان الجمال فيه ، وطريق من طرق الإحساس بهذا الجمال ، والشعر فن من الفنون الجميلة لامراء ، فإذا أخفينا هذا العنصر الفعال الذي يسلكه في عداد تلك الفنون ؛ إذا أخفيناه وراء ستار من التعقيد والغموض والتعمية والإبهام فقد تلاشى أول طريق أخاذ يمكن أن تتملاه النفس في هذا الفن ، ونعني به الجمال !

نريد في شعر الأداء النفسي تلك الرمزية النفسية المطبوعة ؛ الرمزية التي تلف الفكرة العامة أو الموضوع العام بوشاحها الرقيق الذي لا يحجب الضوء ولا تضيع من ورائه المعالم . . وكل رمزية في واقع الأمر نقاب يلقى على الوجه الجميل ، ولكن هناك وجها يحول النقاب الكثيف بين جماله وبين العيون ، ووجها آخر يكسبه النقاب الشفيف فوق جماله ألوانا من الفتون . وهكذا نجد الفارق الدقيق بين الرمزية اللفظية والرمزية النفسية !

إن الرمزية في جوهرها ما هي إلا وسيلة من وسائل التعبير تستحيل معها المدركات الحسية إلى مدركات نفسية . . إنها الجسر الذي تعبره الألفاظ والأخيلة والمعاني لتلتقي في بقعة فكرية بعينها تنطمس فيها الماديات لتحل محلها المعنويات . وهي في الشعر بعد ذلك ألوان . رمزية جزئية تصب في قالب اللفظ وحده ولا تتعداه ، ورمزية مماثلة تقع من الصورة الوصفية موقع الإطار ، ورمزية كلية تشمل الهيكل العام أو الموضع العام للقصيدة . . أما رمزية اللفظ فهي رمزية الشطحات التعبيرية ، وأما رمزية الصورة فهي رمزية الشطحات التخيلية ، وكلتاهما تمثل ذلك النقاب الكثيف الذي يلقي ظلاله المبهمة الداكنة على وجه الفن ، ويحيل الومضة النفسية ظلاما تتخبط فيه الأذواق وتضطرب المقاييس في تحديد مداه ! . . هناك لفظ يدفعك إلى أن تبذل في استجلاء مراميه كثيراً من العناء لأنه يمتح من نبع شقوى معقد يتدفق من وجود داخلي معقد ؛ وهناك صورة تجهد فكرك إذا حاولت أن توفق بين خطوطها المتنافرة ، لأنها مرسومة بريشة الحركة الإلواعية ، أو لأنها من صنع المخيلة المحلقة في آفاق ذهنية لا تمكس منها غير مظاهر الضباب ؛ وهكذا نجد الرمزية المصنوعة حين تردها إلى شطحات التعبير والتحليل في نطاق الصور والألفاظ .

ولا كذلك الرمزية المطبوعة لأنها حركة استبطان نفسي قبل كل شيء ؛ استبطان تبدأ مرحلته الأولى بجمع المادة الأولية لكل ظاهرة حسية في مجالها المادي ، وتبدأ مرحلته الثانية بفحص هذه المادة الأولية فحصا يرجعها إلى مصادرها من النفس والحياة ، وتبدأ مرحلته الثالثة بعملية المقابلة والموازنة بين الطابع الحسي للظاهرة المادية وبين الطابع النفسي للفكرة الفنية . وفي هذه المرحلة الأخيرة يتم التوافق الدقيق الكامل بين عالمي الماديات والمعنويات !

هذه الرمزية المطبوعة التي نعنيها بهذه الكلمات ، هي الرمزية التي يرفل فيها اللفظ في أثوابه النفسية البسيطة التي لا تختلف وكل ما يماثلها في الشعر من أثواب ، والتي تخطر فيها الصورة الوصفية في مواكبها البيانية وهي منمورة بأضواء الحركة الواعية التي تعمل في وضح النهار ، وهي الرمزية التي يبقى فيها الرمز بعد ذلك مقصورا على الفكرة العامة للقصيدة أو منصبا على الموضوع العام . عندئذ تكون الرمزية في الشعر عملا فنيا جديرا بالنظر فيه والاطمئنان إليه ، وكذلك كل عمل فني يخلو من الشعوذة اللفظية والشعوذة الفكرية !

ونخطو إلى أبعد من ذلك خطوة أخرى حين نطالب بأن تكون تلك الرمزية الموضوعية أشبه بالخريطة الجغرافية فيها مواقع المرتفعات والمنخفضات ، عن طريق « الإيماء » إلى هذه وتلك بما يتعارف عليه من ألوان . . هنا في مثل هذه الخريطة « ألوان مادية » تومئ أو ترمز للجبال والوديان والأنهار ، وهناك في مثل تلك الرمزية « ألوان نفسية » تومئ هي الأخرى أو ترمز للظواهر والخواطر والمدركات » !

ترى هل يحتاج الأستاذ الناصري بعد هذه الدراسة الفنية إلى إبداء رأينا في هذه القصيدة الرمزية ؟ مهما يكن من شيء فإن الذنب ليس ذنب « صديقنا الدكتور بشر فارس » ولكنه ذنب الصحافة الأدبية التي تنشر له مثل هذا السخف وتشجعه على مثل هذا الهراء . . ومعذرة للصداقة التي تربطنا بالدكتور الصديق ، لأننا قد تعودنا في النقد الأدبي ألا نجامل الأصدقاء !!

أنور المعداوي